

قصتي مع التصميم بالمشاركة أو ال Support جميل أكبر

سألني بعض الأحبة عن ماهية صورة لمسقط أفقي وضعتها في الفيس بوك كخلفية. وللتوضيح أقول: هذه صورة لصفحة من بحثي للماجستير، وهي صورة لمخطط الدور الأرضي لمشروع إسكان صممته وأنا طالب آنذاك (1978 إلى 1984). وقد وضعت البحث وبه المشروع في صفحتي في أكاديميا إديو <https://dammamu.academia.edu/JamelAkbar> و تجدونه بإذن الله تحت عنوان: Support for Court-Yard Houses, Saudi Arabia

وقصة طريقة التصميم هذه باختصار كالآتي:

لقد انتشرت في أوروبا وبعض الجامعات في الولايات المتحدة في السبعينات إلى التسعينات من القرن الماضي المطالبة بمشاركة السكان في اتخاذ القرارات العمرانية. عندها ظهرت طريقة تصميمية وضعها جون هبراكن N. J. Habraken هذه الطريقة أول ما ظهرت في الستينات في هولندا. والهدف منها هو حل إشكالية مشاركة السكان في اتخاذ القرارات التصميمية. فبنت جامعة MIT الفكرة حيث حضر هبراكن كأستاذ ورئيس قسم ودرس الفكرة والتي تتمحور حول كتابه المعنون ب Supports: An Alternative to Mass Housing والذي طبع سنة 1961 والذي ترجم لعدة لغات. ثم ظهر كتاب آخر يوضح طريقة التصميم هذه تحت عنوان Variations: the Systematic Design of Supports فمع قناعة الجميع في الستينات بفشل مشاريع الإسكان التي تبنيتها الدولة mass housing في أوروبا وأمريكا مقارنة بالأحياء السكنية التي بناها الناس كتلك التي في أواسط المدن الأوروبية، ظهرت عدة محاولات لتحليل مصدر الفشل. فكانت مساهمة هبراكن Habraken من تحاليه هي وضع فكرة مفادها أنه سيستحيل على المعماري تصميم مسكن ملائم في مشروع إسكاني لاختلافات احتياجات الناس وأذواقهم. فهل يعقل أن نبنى مشروعاً به مئات المساكن وبنفس التصميم؟ فعمرو من الناس مثلاً يحب إمضاء وقت أطول في غرفة نومه ويريد غرفة أوسع على حساب مساحة المطبخ. بينما بكر يحب العكس، فهو يحب القراءة أو الطبخ بجانب زوجته ويريدان مطبخاً أكبر، فالنوم بالنسبة له شر لا بد منه. لهذا لا بد وأن تكون المساكن مختلفة في تصاميمها. والأمر أيضاً ينطبق على الأحجام. فقد لا تمنع الأسرة الصغيرة السكنى في شقة سكنية صغيرة لتوفير بعض المال، بينما الأسرة الأكبر في عددها لا مفر لها من السكنى في مسكن كبير ما يتطلب مشروعاً بمساحات مختلفة.

من جهة ثانية، فإن المفترض في أي مشروع عمراني أن يعيش لمئات السنين، عندها وبعد عشرات السنين وبتغير الظروف سيضطر السكان حينها لتغيير وظيفة المبنى لتلائم تغير الظروف. فإن ظهر مستشفى بعد عشرات السنين بالقرب من حي سكني فقد تتغير تلك المساكن لوظائف مساندة للمستشفى مثل صيدليات أو معامل أو مساكن للممرضات أو أو. لذا فهناك حاجة لتصميم يتحمل الاستخدامات المستقبلية المستحدثة التي لا نراها اليوم. وبهذا فإن صُمم المشروع بطريقة تتحمل استخدامات مستقبلية مختلفة، فلا حاجة لهدمه مستقبلاً، بل بالقليل من البناء والهدم سيتحقق التغيير.

وكما هو معلوم فإن التاريخ العمراني أظهر لنا العلاقات المتداخلة بين الشكل form والاستخدام أو الوظيفة function. فكما لاحظنا فقد نجد تحت القبة بهو مدخل قصر أو ساحة مصلى أو صالة اجتماعات أو أو أو. وكذلك بالنسبة للفراغات الصغيرة، فقد نجد مكانا مساحته مترين في مترين وقد يكون مخزنا ثم يتغير إلى دورة مياه مستقبلا أو أو أو. وهكذا إن نظرنا إلى العمران سنلاحظ أنه يتغير باستمرار. فلماذا إذن نصصمه وكأنه ثابت في استخداماته ولا يتغير. وبالطبع فهناك الكثير من المبررات الأخرى التي تجعل الباحث ينجذب لفكرة التصميم هذه والتي وضحاها هيركن Habraken في كتاباته.

وهذا ما حدث معي. فقد انجذبت لهذه الفكرة ذلك أن طريقة التفكير هذه أدت إلى النظر إلى العمران على أنه متغير وديناميكي. فكانت مساهماتي المتواضعة آنذاك هي تصميم منشأة ذات فناء داخلي تتحمل الأحجام المختلفة للعوائل وتستوعب الأذواق المتباينة وتلبي الاستخدامات المتجددة مستقبلا. وللوصول لهذا التصميم كان لابد لي من القيام بعدة دراسات مثل تحليل المنزل ذي الفناء الداخلي ووظائف الفناء وتفاعله مع الأماكن المحيطة به، ومثل تحليل كيفية استخدام الفراغات في المساكن المعاصرة مقارنة بالتقليدية. ولعل الأهم لتصميم هذه المنشأة هو فهم مواضع الفراغات المختلفة مقارنة بغيرها من جميع الاحتمالات والتي وُضعت في صيغ جمل كلامية لتوضيح العلاقات بين الأماكن باستخدام منهجية Pattern Language.

وحتى تكون الفراغات ذات مغزى تعين الناس على اتخاذ القرارات مستقبلاً كان لابد لها وأن تُبنى بطريقة تسهل عليهم اتخاذ القرارات التصميمية. ففكرة ال sector أو "الغرفة" (كما ترجمتها في كتاب عمارة الأرض في الفصل التاسع) هي النظر إلى المشروع وكأنه مجموعة من الحاويات ذات الأحجام المختلفة كل منها له استيعابيات مختلفة. لتتذكر الحاويات التي توضع فيها البضائع مثلا والتي تنقلها سفن الشحن، فكل حاوية عبارة عن مكان توضع فيه جميع أنواع البضائع من ملابس إلى مأكولات إلى أجهزة كهربائية. فهي تحوي أشياء مختلفة، وكذلك الفراغات، أو بالأصح الغرفات والتي كأنها تغرف المكان من الفراغ، إن صممناها وكأنها حاويات تتحمل استخدامات مختلفة إن تفاعلت فيما بينها، فهي في مجموعها مع بعضها ستزيد من الاحتمالات الاستخدامية مستقبلا. هكذا يظهر ال support

فإن تأملتم الصور التي في بحث الماجستير ستلاحظون أن هناك مستويات مختلفة لاتخاذ القرارات. فالقرار الأول هو تحديد المساحات، وهذه تكون بضم الغرفات المتجاورة لإيجاد وحدة سكنية، منها الكبير ومنها الصغير. كل ساكن حسب رغبته. هذا نظريا، لكن عمليا، فقد يقوم مطور ما بالاستثمار في بناء المنشأة ثم بيع البيوت السكنية حسب رغبة أو مقدرة الزبون من حيث المساحات بضم الغرفات بعضها إلى بعض. أو قد تقوم الدولة بذلك بتخيير أفراد الشعب إن كان التمويل جزئيا من الدولة كما في سنغفورة مثلا، وهكذا من سيناريوهات لا تنتهي. لكن المهم هو أن التصميم بهذه الطريقة يعين على اختيار طريقة التوزيع بمساحات مختلفة، أي أن التصميم ليس عقبة إن كانت هناك رغبة للتوزيع بمساحات مختلفة ضمن نظام واحد ما يقلل من تكلفة البناء.

وعلى فرض صعوبة توزيع المساكن بمساحات مختلفة إن كانت الدولة تتبنى سياسات تقترب من الاشتراكية مثلا وتؤمن بالتساوي في التوزيع، فعلى الأقل فإن هذه الوحدات السكنية بعد ملكيتها للشعب ستتمتع بإمكانية تغييرها مستقبلا. فقد يتحول المشروع بعد عشرات السنين إلى سوق في دوره الأرضي، وهذا بالطبع ممكن بهدم الحوائط التي تفصل بين المساكن لتصبح مجموعة الأفنية المتلاصقة وكأنها طريق في السوق تحيط به المحلات من الجانبين، وهكذا. هذا التغيير يتطلب تغيير المساحات في الأدوار العليا إن استخدمت كمخازن أو مكاتب مساندة. عندها فقد يتبايع الملاك لأجزاء (غرفات) من مساكنهم. ففي المدنية الإسلامية وفي الشريعة، كانت للأماكن أسماء يعرفها السكان، مثل الدهليز أو الصفة أو أو. وقد كان السكان يتبايعون هذه الأماكن كما هو ثابت من عقود البيع والشراء بين الناس. فقد يشتري الشخص من جاره الغرفة الملاصقة لعقاره، وهكذا. وهذا ساعد المناطق التقليدية لتلبية الاستخدامات المختلفة بسبب إمكانية ضم وحدة سكنية كاملة لجارتها أو نصف أو ربع وحدة أو حتى مخزنا صغير، وبالطبع فإن هذه الإمكانيات ليست متوفرة في أيامنا هذه في معظم الدول. ولعلك أختي القارئة وأخي إن لم تعجبك هذه التداخلات بين الوحدات السكنية تستطيع تصورها على أنها وحدات متراسة بجانب بعضها البعض ومتساوية في المساحات وبأشكال مستطيلة. فهذا معلوم بالبديهية.

وإن نظرنا إلى الطريق الخلفي بين الوحدات، فهو أيضا مستوى آخر من القرارات. فقد يكون هناك طريق أو لا يكون، وقد يكون طويلاً أو قصيراً، أو قد كونه مغطى أو لا يكون كما هو موضح في القطاعات. وهكذا من قرارات تشكل المستوى الثاني.

ثم يأتي المستوى الثالث من القرارات وهو تحديد موقع الفناء، فكما نلاحظون فهناك وسط كل وحدة تسع فراغات متوازية بعرض 1.20 مترا لكل منها وبطول 4.80 مترا. وللساكن أو المطور الخيار بتحديد مساحة الفناء بتحديد عدد يختاره من هذه الأماكن التسعة بضمها إلى بعضها كما هو موضح في البحث. حتى الطول قابل للتغيير بضم أحد أو كلا المجازين الموازيين للفناء، وبهذا فإن المساحات المتوقعة والمختلفة للأفنية رقم كبير يصعب حصره وبالذات إن وضعنا في الأذهان احتمالية أن يكون الفناء في أحد ثلاث مواضع، إما على يمين أو شمال أو وسط الوحدة السكنية.

ثم يأتي المستوى الرابع من القرارات وهو الذي يتخذه الساكن في الغالب لنفسه، وهو تحديد الاستخدامات داخل الوحدة السكنية، هل هذه الغرفة لغرفة النوم أو للمطبخ؟ وهل المعيشة مفصولة عن الفناء بالرواق أم أن الرواق مدموج في المعيشة؟ ولعلكم لاحظتم أنني وضعت في كل وحدة أربع أماكن صغيرة لوضع التمديدات التي تخدم المرافق من مطابخ ودورات مياه. وبالطبع فإن تحديد مواضع هذه الأماكن بحاجة لعناية بالغة لأنه يحد من طريقة استخدام الغرفات مستقبلا.

هذا الوصف السابق لبحثي للماجستير هو المختصر للمنهج العملي، أما الفكري فقد يطول شرحه، لكن بحمد الله لخصه هيركن باللغة الإنجليزية في خطاب توصية كان قد كتبه لي. ولمن أراد التوضيح، فقد وضعت الخطاب في صفحتي في <https://dammamu.academia.edu/JamelAkbar> تحت عنوان: خطاب توصية هيركن.

ولعل السؤال الأهم والذي سيتبادر للأذهان هو: لماذا لم تنتشر هذه الطريقة في التصميم؟ والإجابة هو أنها انتشرت لكنها أخذت خطأ آخر. كيف؟

إن الطريق بين المعرفة المنتشرة في الغرب وتطبيقها على أرض الواقع شبه مقطوع في عالمنا العربي والإسلامي ودول العالم الثالث. لكنها ليست كذلك في دول الغرب. فقد بدأت طريقة التصميم هذه في الانتشار في العالم الغربي فكريا وطبقت عمليا في بعض المشاريع كتلك التي بناها نبيل حمدي مثلا في إنجلترا (ملخص سريع أنظر مثلاً موسوعة ويكيبيديا تحت Open Building). ثم هدا الإنتشار لأن تلك الدول تراخت ثم توقفت إلى حد كبير عن بناء مشاريع الإسكان الحكومية، وبالذات مع ظهور تاتشر وريجن الذين قررا ترك هذه المسألة للقطاع الخاص. ولأن القطاع الخاص يريد الربح، عندها فسيقوم بشتى الإبداعات لبيع ما يبني، فظهرت التصاميم المختلفة وبالاحجام المختلفة لجذب الزبائن، هكذا وقع كل زبون على ما يلائمه ويلبي متطلباته. ولهذا لم يفشل التصميم السكني عندهم إلى حد كبير. هنا تخف الحاجة للمشاركة في التصميم لأن الزبون عندما يختار ما يريد شراءه إنما هو يزوال حقه في المشاركة بالاختيار. لهذا ضعف انتشار هذه الطريقة في التصميم لاسيما أنها طريقة شاقة وبحاجة للكثير من الصبر. فتصميم وحدة تتحمل استخدامات مختلفة يستهلك الكثير من الوقت مقارنة بتصميم وحدة أو إثنين كنمط ثابت يعاد تكراره مئات أو آلاف المرات كما في مشاريع الإسكان الكبرى. لهذا فالدول التي لاتزال تبني المشاريع بكميات كبيرة هي الدول الاشتراكية أو الرعوية، وهذه الدول لانقطاع الطريق المعرفي بينها وبين الدول الغربية لاتزال تبني بنفس الطريقة التقليدية التي تدرسها في الجامعات فتفشل المشاريع.

لكن العالم الغربي الرأسمالي الذي يقدر قوى السوق من عرض وطلب في تحديد نوعيات المستهلكات استفاد من نظرية هبركن في المجالات التي تدر الربح. فسرعان ما ظهرت الأسواق التجارية Shopping Malls المصممة بطريقة مرنة تتيح للتجار كزبائن الحصول على المساحات المختلفة من السوق بناء على مقدرتهم. فهذا تاجر يريد محلا مساحته خمسون مترا مربعا لبيع البجامات فقط، وتلك شركة تريد خمس آلاف مترا مربعا لبيع الأدوات الكهربائية. وهذا مطعم يريد ثلاث مئة مترا، وهكذا. لهذا كان على مصممي الأسواق التجارية البحث عن وسيلة تصميمية تحقق لهم هذه المتطلبات، فظهرت التصاميم التي تحدد أماكن السير للمتسوقين وما يحتاجونه من مداخل ومرافق، وتحدد أماكن الخدمات، مع ترك فراغ كبير يقوم المطور بتقطيعه لأجزاء ثم بيعه أو تأجيره بمساحات مختلفة للتجار. نفس المنطق انطبق على المنشآت التي تحوي المكاتب التجارية والإدارية Office Buildings. فالمصممون أيضا اعترفوا بقوى السوق من عرض وطلب ووفروا من خلال التصميم للزبائن ما يحتاجونه من مساحات مختلفة لمكاتبهم. فترى المنشأة تحوي مركزا به الخدمات والمساعد وبعض الممرات مع ترك فراغ مفتوح يتم تقسيمه لاحقا إلى مكاتب بمقاسات مختلفة. ولأن طريقة التصميم هذه انتشرت عمليا في الغرب في هذين القطاعين (المكاتب والأسواق) وازدهرت على المستوى العملي، انتقلت هذه المعرفة إلينا فيما يسمى بدول العالم الثالث ولم تنتقل في الإسكان.

وهنا ملحوظة مؤلمة، وهي أن تصاميم المكاتب بالذات سواء في دول الغرب أو في دولنا، لم تطبق النظرية كما وضعها هيراكين، بل بطريقة سطحية أدت وستؤدي للكثير من الإشكاليات والتكلفة المرتفعة غير المبررة للوصول إلى التغييرات المطلوبة. كيف؟

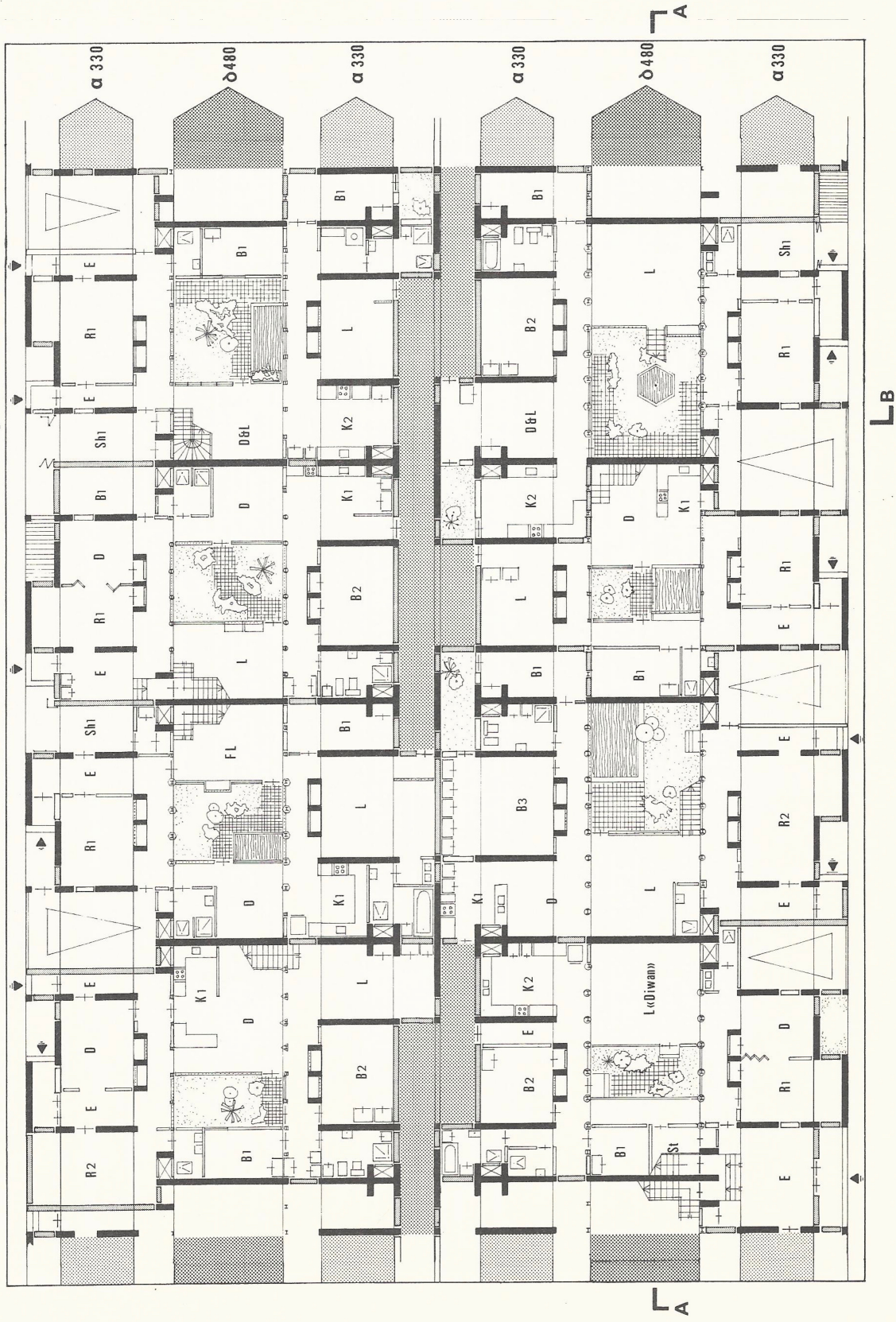
لقد وضع هيراكين عدة مستويات للعناصر في المنشأة عند اتخاذ القرارات، والتي قد تكون مستويين في عمارة سكنية أحادية أو أكثر في المشاريع السكنية الكبيرة التي تتطلب المشاركة في اتخاذ القرارات حول المسكن كموافق السيارات والملاعب، وقد تزيد لأكثر من ذلك كما فعلت في تصميم المنزل ذي الفناء. فالمستوى الأعلى في تصميم عمارة سكنية واحدة هو تحديد الغرفات أو ما يُبنى ك support أما المستوى الأدنى فهو العناصر التي توضع لإكمال عناصر المستوى الأعلى والمسمى بال infill أو detachable units فهي العناصر المكتملة مثل الحوائط الثانوية أو الأبواب أو أو. عندها سيظهر المسكن. ولتحديد عدد المستويات ومن ثم عناصرها لابد من الكثير من التجارب والمحاولات من خلال استخدام طريقة تصميمية وضعها هيراكين مثل تحليل المجازات أو النطاقات أو ال zone. فمن الملاحظ مثلاً أن الغرف المملصة للشارع في حضارة ما تكون بمساحة كذا، وفي حضارة أخرى هي أكبر قليلاً أو أقل قليلاً. وهكذا من ملحوظات في كل ثنايا البيئة المبنية. ثم تستخدم هذه الملحوظات والمساحات كنقطة انطلاقاً لتحديد مساحات الغرفات وعناصرها. وهكذا وبمثل هذه الملحوظات وبمثل هذه التحاليل (والتي يصعب شرحها هنا) سيتمكن المصمم من تصميم منشأة تعطينا خيارات أكثر برغم احتوائها على عناصر بنائية أكثر. لهذا سيتمكن الساكن بسرعة أن يستنتج ويقرر: هذا مكان كبير يصلح أن يكون غرفتنا للمعيشة، وذلك مكان متوسط سيكون مكتباً لي. وبهذا يستطيع غير المهني أن يفعل ما يريد دون أن يخطئ لأن التصميم يحتمل ذلك، بل حتى يدعمه أو يدعو إليه.

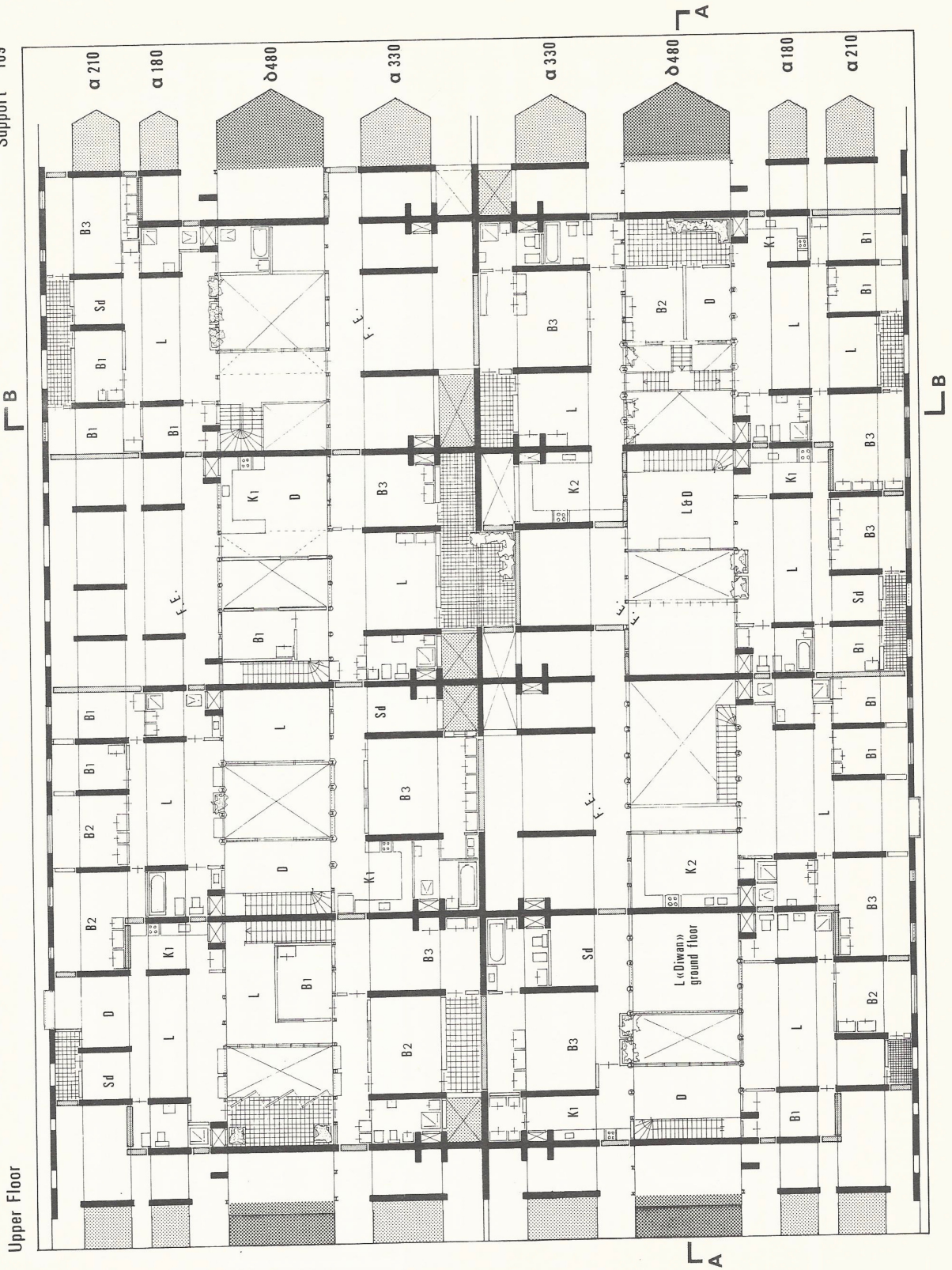
أي أن هذه الطريقة التصميمية لا تعني أبداً كما فهم أو كما حدث مع معظم المصممين أن يتكون المبنى من جزين: جزء يحمل المبنى إنشائياً ويحوي الخدمات مع تحديد المسارات للمارة، وجزء مفتوح مع مرونة قصوى ليُقسم ويؤجر أو يباع لاحقاً. طريقة التصميم هذه التي اتبعتها من لم يدرسوا عمل هيراكين أدى لظهور مبان خالية في الغالب من الحوائط قدر المستطاع بدعوى المرونة. وهذا بالطبع سيجعل الساكنين الجدد في حيرة لكيفية التقسيم، مع تكلفة مرتفعة من إضافات بنائية لتأهيل المبنى للوظيفة. وقد رأيت الكثير من المباني التي احتار المستخدمون فيها عن كيفية الاستفادة من المكان المفتوح، فلا هو الضيق الذي سيسع غرفة مدير المؤسسة، ولا هو الواسع الذي يسع مكتبين مع ممر بينهما. والمحصلة هي إضاعة للفراغ مع تشييد أكثر. فهناك خلط شديد في أذهان المصممين بين المرونة flexibility والمقدرة على احتواء استخدامات مختلفة potentialit، فللوصول لمرونة أعلى اتسمت المنشآت بأقل عدد ممكن مع العناصر البنائية مع فراغات مفتوحة كبيرة ما أضع الكثير من الجهد والمال لتهيئتها.

هذا بعض ما تعلمته من الأستاذ جون هيراكين الذي درست معه لست سنوات ودرّست معه بتوفيق الله عدة مواد. لقد تعلمت منه الكثير خلال دراستي وتدريسي معه بفضل الله وجوده وكرمه. فله العليم الحكيم الحمد والشكر والمنة.

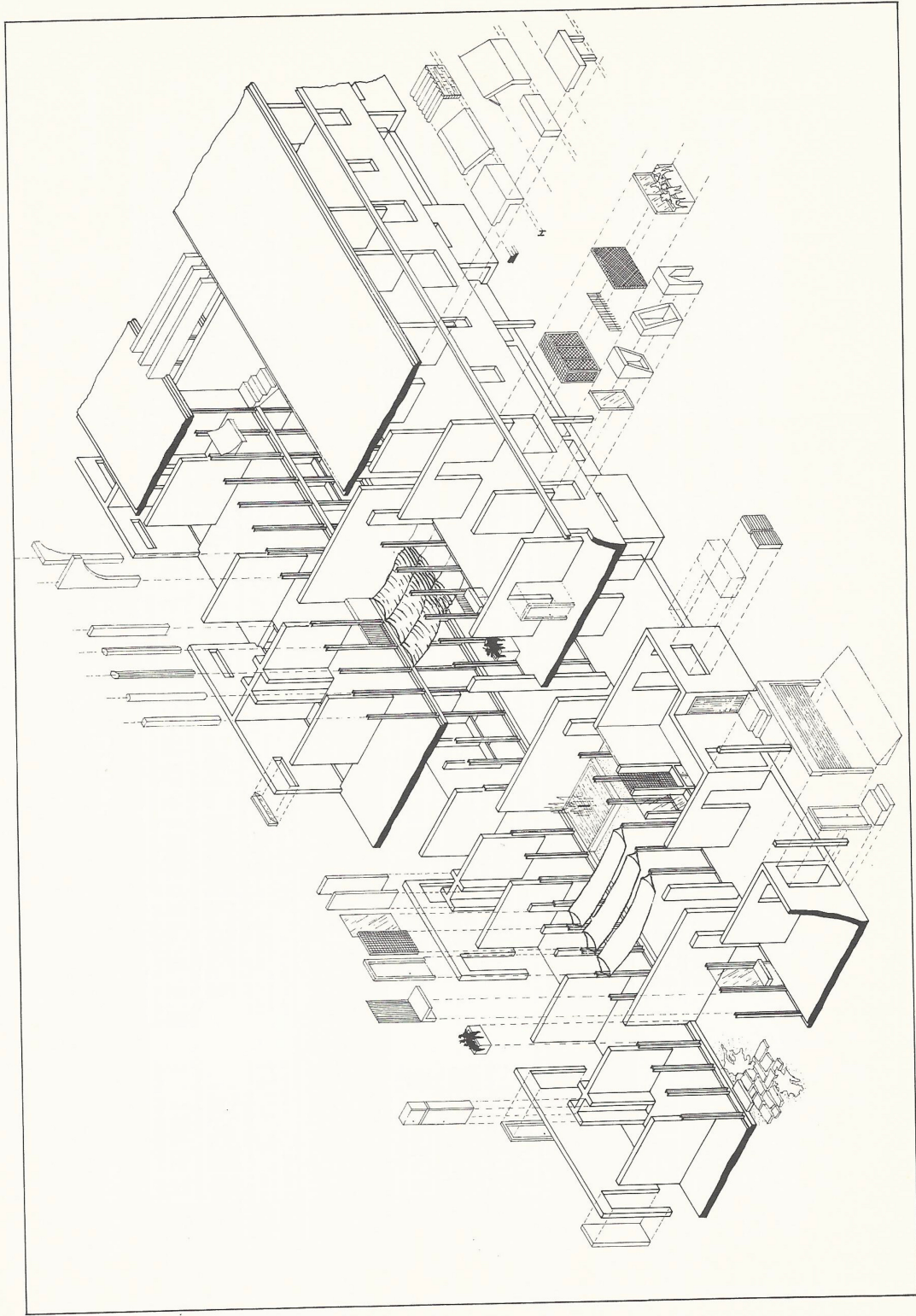
Sub-variations

„Ground Floor.“





Detachable units



Section types

Step Three :

In this step each family will decide upon the location and size of the courtyards in the upper and ground floors by connecting the two built zones by floor plates.

On the next page, the first three columns on the left illustrate the basic section types. From each basic section type, five or more variants can be developed by shifting or changing the location of the openings. The column on the right illustrates some of the section variants of the side courtyard openings.

